أندلسيات

أبو بكر بن العـــربي

للأستاذ عبد الرحمن البرقوقي

أسلفنا أن المترجم له قدم الأندلس من رحلته بعلم كثير، واتخذ بلده أشبيلية مقاما له، وأخذ يذيع علمه، وجلس للوعظ والتفسير والافادة، ورُحِل اليه للسماع، وصنف فى غير فن تصانيف كثيرة حسنة ضخمة، حتى يروى أنه ألف أربعين مؤلفا فى موضوعات شتى فُقِد معظمها، ذكروا منها كتاب العواصم والقواصم، والمحصول فى أصول الفقه، وكتاب المسالك فى شرح موطأ الامام مالك، وكتاب الناسخ والمنسوخ، وكتاب أنوار الفجر فى تفسير القرآن، قالوا إنه ثمانون ألف ورقة فى ثمانين مجلدا، وكتاب عارضة الأحوذى[1] على كتاب الترمذى الخ ولمناسبة كتابه أنوار الفجر فى التفسير نورد كلمة له قالها عند تفسير قوله تعالى: «إِنْفِرُوا خِفَافًا وَثِقَالًا»، تدل على أنه كان إماما طليقا واسع آفاق الفكر عصريا كما نعبر اليوم... وهى هذه: «ولقد نزل بنا العدو — الاسبانيون — قصمه الله سنة ٥٢٧، فجاس ديارنا وأسر جيرتنا، وتوسط بلادنا فى عدد حدّد الناس عدده، وكان كثيرا وإن لم يبلغ ما حددوه، فقلت للوالى والولى عليه: هذا عدو الله قد حصل فى الشرك والشبكة، فلتكن عندكم بركة، ولتكن منكم إلى نصرة الدين المتعينة عليكم حركة، فليخرج اليه جميع الناس حتى لا يبقى منهم أحد فى جميع الأقطار فيحاط بهم فانه هالك لا محالة ان يسركم الله له، فغلبت الذنوب، ورجفت بالمعاصى القلوب، وصار كل أحد من الناس ثعلبا يأوى إلى وجاره، وإن رأى المكيدة بجاره، فانا لله وانا اليه راجعون، وحسبنا الله ونعم الوكيل..» وقد أسند إلى المترجم له قضاء بلده. قال تلميذه القاضى عياض: فنفع الله به أهلها لصرامته وشدته ونفوذ أحكامه، وكانت له فى الظالمين سورة مرهوبة، وتؤثر عنه فى قضائه أحكام غريبة، ثم صرف عن القضاء، وأقبل على نشر العلم وبثه...

(١) العارضة القدرة على الكلام، يقال فلان شديد العارضة إذا كان ذا قدرة على الكلام، والأحوذى الخفيف فى الشىء الحذق

تلاميذه

وقد تتلمذ للمترجم له عدة ممن تخرجوا عليه وكان لهم شأن يذكر، فمنهم القاضى عياض صاحب الشفاء، وسنترجم له إن شاء الله — ومنهم الامام الحافظ ابن بشكوال صاحب كتاب الصلة وخلافه، ومنهم الامام السهيلى صاحب كتاب الروض الأُنف فى شرح سيرة رسول الله صلى الله عليه وسلم وغيره من التواليف، وصاحب هذه الأبيات المشهورة التى أنشدها للامام الحافظ أبى الخطاب بن دحية وقال له: ما سأل الله تعالى بها حاجة إلا أعطاه إياها، وكذلك من استعمل إنشادها، وهن:

يامن يرى مافى الضمير ويسمع ... أنت المُعَدُّ لكل ما يتوقع
يامن يُرَجّى فى الشدائد كلها ... يا من اليه المُشْتَكى والمفزع
يا من خزائن رزقه فى قول كن ... أَمِنْ فان الخير عندك أجمع
مالى سوى فقرى اليك وسيلة ... فبالافتقار اليك فقرىَ أمنع
مالى سوى قرعى لبابك حيلة ... فلئن رُددتُ فأى باب أقرع
ومن الذى أدعو وأهتف باسمه ... ان كان خيرك عن فقيرك يمنع
حاشا لمجدك ان تقنط عاصيا ... الفضل أجزل والمواهب أوسع

أقوال مؤرخى الأندلس فيه

واليك نتفاً مقتطفة مما قاله فى حق المترجم له مؤرخو الأندلس ممن عاصره وتتلمذ له. قال الحافظ بن بشكوال فى كتابه الصلة: هو الحافظ المستبحر، ختام علماء الأندلس وآخر أئمتها وحفاظها.. كان من أهل التفنن فى العلوم والاستبحار فيها والجمع لها مقدماً فى المعارف كلها، متكلما فى أنواعها، نافذاً فى جميعها، حريصاً على أدائها ونشرها، ثاقب الذهن فى تمييز الصواب منها، يجمع الى ذلك كله آداب الأخلاق مع حسن المعاشرة ولين الكنف وكثرة الاحتمال وكرم النفس وحسن العهد وثبات الود الخ الخ وقال أبو نصر الفتح بن خاقان صاحب المطمح والقلائد:

الفقيه الحافظ أبو بكر بن العربى علم الأعلام الطاهر الأثواب، الباهر الألباب الذى أفنى ذكاء إياس، وترك التقليد للقياس، وأنتج الفرع من الأصل، وغدا فى بدء الاسلام أمضى من النصل،

سقى الله به الأندلس بعد ما أجدبت من المعارف : ومد عليها منه الظل الوارف ، وكساها رونق نبله ، وسقاها ريق وبله . وكان أبو محمد باشبيلية بدرا فى فلكها ، وصدرا فى مجلس ملكها ، واصطفاه معتمد بنى عباس اصطفاء المأمون لابن أبى دؤاد ، وولاه الولايات الشريفة ، وبوأه المراتب المنيفة ؛ فلما أقفرت حمص (يريد أشبيلية) من ملكهم وخلت ، وألقتهم منها ونخلت ، رحل به إلى المشرق ، وحل فيه محل الخاتف الفرق ، فجال فى أكنافه ، وأجال فيها قداح الرجاء فى استقبال العز واستئنافه ، فلم يسترد ذاهباً ، ولم يجد كمعتمده باذلاً له وواهباً ، فعاد إلى الرواية والسماع ، وأبو بكر إذ ذاك فى ثرى الذكاء قضيب ما دوّح ، وفى روض الشباب زهر ما صوّح ، فألزمه مجالس العلم رائحاً وغادياً ، ولازمه سائقاً اليه وحادياً ، حتى استقرت به مجالسه ، واطردت له مقاييسه ، فجد فى طلبه ، واستجد به أبوه متمزق أربه ، ثم أدركه حمامه ، ووارته هناك رجامه ، وبقى أبو بكر منفرداً ، وللطلب متجرداً ، حتى أصبح فى العلم وحيداً ، ولم تجد عنه رياسته محيداً ، فكرّ إلى الأندلس فحلها والنفوس إليه متطلعة ، ولأنبائه متسمعة ، فتاهيك من حظوة لقى ، ومن عزة سقى ، ومن رفعة سما اليها ورقى ، وحسبك من مفاخر قلدها ، ومحاسن أنس أثبتها فيها وخلدها ، الخ الخ .. وقد وصفه القاضى عياض بما أوردنا بعضه عن حاله فى القضاء ، وفى هذا القدر غناء . .

مقتطفات من منظومه ومنثوره

وأظنك لا تجهل أن أكثر علماء الأندلس وفلاسفتها وسائر مثقفيها يقرضون الشعر ، وقلّ أن تظفر بأندلسى لا يقول الشعر ، ومن ثم لا تستغرب أن يكون مثل القاضى أبى بكر بن العربى شاعراً وشاعراً ظريفاً ... فمن شعره وقد ركب مع أحد الأمراء الملثمين ، وكان ذلك الأمير صغيراً ، فهزّ عليه رمحاً كان فى يده مداعبا ، فقال :

يهزّ علىّ الرمح ظبى مهفهف ... لعوب بألباب البرية عابث
ولو كان رمحاً واحداً لا تقيته ... ولكنه رمح وثان وثالث

ولعل الرمح الثانى والثالث القد واللحظ .. ومن بديع شعره :

أنتنى تؤنبنى بالبكا ... فأهلاً بها وبتأنيبها
تقول وفى نفسها حسرة ... أتبكى بعين ترانى بها
فقلت إذا استحسنت غيركم ... أمرت جفونى بتعذيبها

وحكى رحمه الله قال : دخل على الأديب بن صارة — وهذا ابن سارة أو صارة شاعر فحل من شعراء الأندلس — وبين يدى نار عليها رماد ، فقلت له : قل فى هذه ، فقال :

شابت نواصى النار بعد سوادها ... وتسترت عنا بثوب رماد

ثم قال لى أجز ، فقلت :

شابت كما شبنا وزال شبابنا ... فكأنما كنا على ميعاد

ويروى أنه كتب كتاباً فأشار عليه أحد من حضر أن يذرّ عليه نشارة ، فقال قف ، ثم فكر ساعة ، وقال اكتب :

لا تشنه بما تذرّ عليه ... فكفاه هبوب هذا الهواء
فكأن الذى تذرّ عليه ... جُدَرى بوجنة حسناء

ومن شعره :

ليت شعرى هل دروا ... أى قلب ملكوا
ونؤادى لو درى ... أى شعب سلكوا
أتراهم سلموا ... أو تراهم هلكوا
حار أرباب الهوى ... فى الهوى واوتبكوا

وشعر هذا القاضى الجليل كثير جميل يدل على صفاء نفس وحس مرهف وقريحة خصبة مواتية . ونكتفى بهذا القدر ونورد هنا بعض فوائد هن فرائد لهذا الامام العظيم ذكرها فى رحلته وغيرها وأوردها المقرى . فمن هذه الفرائد قوله : سمعت الشيخ فخر الاسلام أبا بكر الشاشى ، وهو ينتصر لمذهب أبى حنيفة فى مجلس النظر يقول : يقال فى اللغة العربية لا تَقْرَبْ كذا بفتح الراء ، أى لا تلتبس بالفعل . وإذا كان بضم الراء كان معناه لا تدن من الموضع .. وهذا الذى قاله صحيح مسموع ... ومنها ما نقله عن ابن عباس رضى الله عنه : لا يقل أحدكم انصرفنا من الصلاة فان قوما قيل فيهم ثم انصرفوا صرف الله قلوبهم ؛ وقد أخبرنا محمد بن عبد الملك القيسى الواعظ ، أخبرنا أبو الفضل الجوهرى سماعا منه : كنا فى جنازة فقال المنذر بها : انصرفوا رحمكم الله . فقال : لا يقل أحدكم انصرفوا ، فان الله قال فى قوم ذمهم ، ثم انصرفوا صرف الله قلوبهم ، ولكن قولوا انقلبوا رحمكم الله فان الله تعالى قال فى قوم مدحهم : فانقلبوا بنعمة من الله وفضل لم يمسسهم سوء ... ومنها قوله فى تصريف المحصنات : يقال أحصن الرجل فهو مُحصَن بفتح الصاد فى اسم الفاعل وأسهب فى الكلام فهو مِسهَب — بفتح الهاء — إذا أطال البحث فيه وألفج

فهو مُلْقَح إذا كان معدما — فقيراً — فهذه الثلاثة جاءت بالفتح نوادر لا رابع لها . . ومنها قوله : سمعت إمام الحنابلة بمدينة السلام — بغداد — أبا الوفاء علي بن عقيل يقول : إنما تبع الولد الأم في المالية وصار بحكمها في الرق والعبودية لأنه انفصل عن الأب نطفة لا قيمة له ولا مالية فيه ولا منفعة مبثوثة عليه ، وإنما اكتسب ما اكتسب بها ومنها فلذلك تبعها ، كما لو أكل رجل تمراً في أرض رجل وسقطت منه نواةٌ في الأرض من يد الآكل فصارت نخلة فإنها ملك صاحب الأرض دون الآكل باجماع من الأمة لأنها انفصلت عن الآكل ولا قيمة لها ، وهذا من البدائع .. ومنها قوله : كان بمدينة السلام إمام من الصوفية وأيّ إمام يعرف بابن عطاء ، فتكلم يوما على يوسف وأخباره حتى ذكر تبرئته مما ينسب إليه من مكروه ، فقام رجل من آخر مجلسه وهو مشحون بالخليقة من كل طائفة ، فقال : يا شيخ ، ياسيدنا ، إذن يوسف همّ وما تمّ ، فقال : نعم لأن العناية من ثم . . . فانظروا إلى حلاوة العالم وللتعلم ، وفطنة العالم في سؤاله ، والعالم في اختصاره واستيفائه ، ولذا قال علماؤنا الصوفية إن فائدة قوله تعالى : ولما بلغ أشده آتيناه حكماً وعلماً أن الله أعطاه العلم والحكمة أيام غلبة الشهوة ليكون له سياجاً للعصمة ... ومنها قوله : تذاكرت بالمسجد الأقصى مع شيخنا أبي بكر الفهري الطرطوشي حديث أبي ثعلبة المرفوع : إن من ورائكم أياماً للعامل فيها أجر خمسين منكم . فقال : بل منهم . فقال : بل منكم ، لأنكم تجدون على الخير أعواناً وهم لا يجدون عليه أعواناً .. وتفاوضنا كيف يكون أجر من يأتي من الأمة أضعاف أجر الصحابة مع أنهم أسسوا الاسلام ، وعضدوا الدين ، وأقاموا المنار ، وافتتحوا الأمصار ، وحموا البيضة ، ومهدوا الملة ، وقد قال صلى الله عليه وسلم في الصحيح : لو أنفق أحدكم كل يوم مثل أحد ذهبا ما بلغ مد أحدهم ولا نصيفه . . فتراجعنا القول وتحصل ما أوضحناه في شرح الصحيح ، وخلاصته : أن الصحابة رضي الله عنهم كانت لهم أعمال كثيرة لا يلحقهم فيها أحد ولا يدانيهم فيها بشر ، وأعمال سواها من فروع الدين يساويهم فيها في الأجر من أخلص إخلاصهم ، وخلّصها من شوائب البدع والرياء بعدهم ، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر باب عظيم هو ابتداء الدين والاسلام ، وهو أيضاً انتهاؤه . وقد كان قليلاً في ابتداء الاسلام صعب المرام لغلبة الكفار على الحق ، وفي آخر الزمان يعود كذلك لوعد الصادق صلى الله عليه وسلم بفساد الزمان وظهور الفتن وغلبة الباطل ، واستيلاء التبديل والتغيير على الحق من الخلق ، وركوب من يأتي سنن من مضى من أهل الكتاب كما قال صلى الله عليه وسلم : لتركبنّ سَنَن من قبلكم شبرا بشبر وذراعا بذراع ، حتى لو دخلوا جحر ضب خرب لدخلتموه ...

وقال صلى الله عليه وسلم : بدا الاسلام غريبا ، وسيعود غريباً كما بدا ... فلا بد والله أعلم بحكم هذا الوعد الصادق من أن يرجع الاسلام إلى واحد كما بدأ من واحد ، ويضعف الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ، حتى إذا قام به قائم مع احتواشه بالمخاوف وباع نفسه من الله تعالى في الدعاء اليه كان له من الأجر أضعاف ما كان لمن كان متمكنا منه معاناً عليه بكثرة الدعاة إلى الله تعالى ، وذلك قوله : لأنكم تجدون على الخير أعواناً وهم لا يجدون عليه أعوانا حتى ينقطع ذلك انقطاعا بانا لضعف اليقين وقلة الدين ، كما قال صلى الله عليه وسلم : لا تقوم الساعة حتى لا يقال في الأرض : الله الله . . يروى بفتح الهاء ورفعها ، والرفع على معنى لا يبقى موحد يذكر الله عز وجل ، والنصب على معنى لا يبقى آمر بمعروف ولا ناه عن منكر يقول أخاف الله ، وحينئذ يتمنى العاقل الموت كما قال صلى الله عليه وسلم لا تقوم الساعة حتى يمر الرجل بقبر الرجل فيقول : يا ليتني كنت مكانه ....

« وأما بعد » ، فهذا هو تاريخ القاضي أبي بكر بن العربي ، سردناه لك في أخصر قول وأجزأ اختصار ؛ وحسبك من القلادة ما أحاط بالعنق . ومن هذه الترجمة تتبين منزلة هذا الامام والمكان الذي يشغله بين علماء الاسلام ، وأنه كان إلى فقهه في الدين كأكثر السلف الصالح أديبا كاتبا شاعراً فصيحا كثير اللمح مليح المجلس وهكذا كان أكثر علماء الأندلس

وقد كانت وفاة هذا الامام سنة ٥٤٣ . وقال القاضي عياض : وتوفي منصرفه من مراكش من الوجهة التي توجه فيها مع أهل بلده الى الحضرة بعد دخول الموحدين مدينة اشبيلية ، فحبسوا مراكش نحو عام ثم سرحوا ، فأدركته منيته ودفن بفاس وقبره هنالك مقصود رحمة الله عليه .

عبد الرحمن البرقوقي
رئيس قلم المراجعة بمجلس النواب